مريم والدة المسيح القائم من الموت

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

بهذا اللقب يذكر البابا يوحنا بولس الثاني السعيد الذكر مريم أم يسوع في إحدى مقابلاته العامّة (الثاني من أيّار سنة ١٩٧٩). في الزمن الفصحيّ تتوجّه الكنيسة إليها بكلمات الفرح النقيّ مرنّمة:

إفرحي يا ملكة السّماء، هللويا
فإنّ الذي استحققتِ أن تحمليه، هللويا
قد قام كما قال، هللويا.
صلّي من أجلنا إلى الله، هللويا.

تتكلّم الكنيسة في هذه الانتيفونة مع الأم التي حظيت بأن تحمل في أحشائها، تحت القلب، ولاحقاً على ذراعيها، ابن الله مخلّصنا. وكانت قد حملته للمرة الأخيرة على ذراعيها عندما أنزلوه عن الصليب، على الجلجلة. وتحت ناظريها لفّوه بالكفن وحملوه إلى القبر. ويشدّد قداسته قائلاً: «تحت أنظار الأم!».

في اليوم الثالث وُجد القبر فارغاً. ولم تكن مريم أول من لاحظ الأمر، بل المريمات الثلاث، خاصة مريم المجدلية. وبعدهنّ جاء الرسل ليروا هم أيضاً أن القبر كان فارغاً حسب شهادة النسوة. حتى ولو لم تخبر الأناجيل عن زيارة مريم أم يسوع لمكان القيامة، نحن جميعاً نعتقد أنّه كان يجب أن تكون هناك قبل الجميع. كان يجب أن تكون الأولى بالاشتراك بسرّ القيامة، ففي ذلك حقّ الأمّ.

تحترم الكنيسة حقّ الأم، عندما تدعوها إلى فرح القيامة: إفرحي! لقد قام كما قال. يلي هذه الدعوة إلى فرح القيامة الصلاة لنيل شفاعة مريم البتول. فيظهر بذلك أنّ الكشف عن

القدرة الإلهية للمسيح بواسطة القيامة هو في نفس الوقت كشف عن الشفاعة الفائقة لدى مريم عند ابنها.

في تعليم البابا بندكتس السادس عشر

نجد نفس الرسالة حول مريم والقيامة. في معرض تعليمه عن الثلاثية الفصحيّة (١٢ نيسان ٢٠٠٦)، يقول أنّ في يوم السبت العظيم، تبقى الكنيسة متحدة بمريم في صلاتها عند القبر، حيث يرقد جسد ابن الله في حالة راحة بعد عمل الخلاص الخلّاق الّذي تحقّق بموته (راجع عبرانيين ٤: ١ – ١٣).

اتّحاد مريم بسرّ آلام المسيح، كما هو في سرّ التجسّد، يجعل من المنطقيّ بمكان أن تكون أول الفرحين بقيامته. لذلك يقول قداسة البابا: «لترافقكم القدّيسة مريم هي التي تبعت ابنها الإلهيّ في ساعة الآلام والصليب، فشاركته فرح القيامة».

يرجع إلى نفس التعليم في كلمته بعد صلاة «افرحي يا ملكة السّماء» في ٩ نيسان ٢٠٠٧. بعد التأكّيد على أنّ الإنجيل لا يقول شيئاً عن مريم أمّ الرّبّ في أحداث ترائي يسوع القائم من الموت، يضيف قداسته أنّ التقليد المسيحيّ يحبّ التأمّل بها عن حق بينما تفرح أكثر من أيّ إنسان آخر عندما عانقب ابنها الإلهيّ بعدما ضمّته إلى صدرها لمّا أُنزل عن الصليب. بعد القيامة، تفرح أمّ الفادي مع أحبّاء يسوع الّذين يؤلّفون الكنيسة الناشئة.

يذكر قداسة البابا «التقليد المسيحيّ»، أي ما يمكن أن نجده في تعليم آباء الكنيسة والمعلّمين وفي الرسوم أيضاً.

تبيّن بعض الرسوم يسوع القائم من الموت وإلى جانبه أمّه مريم. لا يمكن أن تكون غائبة عن فرح القيامة الأمّ التي رافقت ابنها الإلهيّ حتى الصليب والقبر.

وهذا ما يقوله القدّيس أنطونيوس البادواني

في عظة الفصح الأولى لتأكّيد هذه الحقيقة: «بعد أن وُضع ابنها يسوع في القبر، لم تبرحه أبداً، على عكس ما يؤكّده بعض النّاس، بل بقت هناك تصلّي ساهرة باكية، حتى رأته قبل أيّ كان قائماً من الموت: لذلك يعيّد المؤمنون يوم السبت إكراماً لها» (عظات، ٢٠٣).

ما يذكره القدّيس أنطونيوس عن يوم السبت ثبت في صلوات الكنيسة التي تكرّس لها يوم السبت في ما ندعوه «خدمة القدّيسة مريم في السبت»، أي صلاة الساعات والقدّاس في أيّام السبت من زمن السنة.

يملأ القدّيس منصور فريير (S. Vincenzo Ferrier)

حدث لقاء مريم مع ابنها القائم من الموت بمخيّلة الإيمان المسيحيّ المبنيّ على التقليد والكتاب المقدّس، فيقول أنّ العذراء كانت متأكّدة من قيامة ابنها لأنّه سبق وأعلمها بالأمر. ولكنّها لم تكن تعلم الساعة، لذلك لجأت إلى الكتاب المقدّس، خاصة إلى المزامير لأنّ داود تكلّم أكثر من كلّ الأنبياء عن آلام المسيح. ولم تجد في كلّ المزامير إشارة واضحة إلى ساعة القيامة، رغم التنويه عن القيامة في المزمور ٥٧ : ٨ : «إستيقظ يا مجدي... سأوقظ السّحر». ولكنّ العذراء وجدت علامة زمنية في نبؤة هوشع (٦ : ٢ – ٣): «بَعدَ يَومَينِ يُحْيينا وفي اليَومِ الثَّالِثِ يُقيمُنا فنَحْيا أَمامَه. لِنَعلَمْ ونُتابِعْ مَعرِفَةَ الرَّبّ. طُلوعُه ثابت كالفَجْرِ».

يتابع القدّيس منصور فرير تأمّله قائلاً أنّ العذراء لما رأت طلوع الفجر سجدت. وفي نفس الوقت أرسل المسيح إليها الملاك جبرائيل قائلاً له: «أنت الّذي بشّرت أمّي تجسّد الكلمة، بشّرها بقيامته أيضاً». فطار رئيس الملائكة مسرعاً نحو العذراء، فقال لها:

«إفرحي يا ملكة السماء، فإنّ الّذي استحققت أن تحمليه في أحشائك قد قام كما قال».

وعندما التقى يسوع بأمّه بعد عودته من مثوى الأموات أخبرها كيف كبّل إبليس وقدّم لها الآباء. وألقى الجميع السّلام عليها مع انحناءة عميقة.

يتابع القدّيس منصور حاثّاً القارئ على تخيّل ما كان شعور آدم وحواء عندما رأوا العذراء مريم قائلين لها: «مباركة أنت يا ابنتنا وسيّدتنا التي تكلّم عنها الرّبّ عندما قال للحيّة: وأجعل عداوة بينك وبين المرأة» (تكوين ٣ : ١٥).

وتقول حواء بدورها: «بسبب خطيئتي أقفلت الجنّة، بينما أنت الممتلئة نعمة أعدت فتحها من جديد».

وراح كلّ الأنبياء يردّدون على مسمعيها: «أنا تنبّأت عنك في كتابي».

حينها سلّم الجميع عليها قائلين: «أنت مجد أورشليم وفرح اسرائيل وعزّ شعبنا».

فأجابت العذراء قائلة : «أنتم جماعة كهنوتية مقدّسة ومختارة، دعاكم الله لتعلنوا تسابيح الّذي قام من بين الأموات» (راجع ١بطرس ١ : ٤ – ٥).

عندها ردّد الملائكة من جديد:

«افرحي يا ملكة السماء...».

لا دارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَبْنيها إلاّ الَّتي كانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بانيها